رفع خبز البانايا على شرف والدة الإله الفائقة القداسة

القديس مكسيموس اليوناني†

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

مقدمة للمترجم

إن مصطلح بانايا، إلى جانب كونه أحد أسماء مريم العذراء والذي يعني "الفائقة القداسة"، يشير أيضًا إلى جزء من خبز التقدمة حيث يُقطَع من الرغيف مثلث كبير تكريماً لوالدة الإله ويوضع على القرص أثناء إعداد التقدمة. هذا تتم مباركته على المذبح أثناء ترنيمة "بواجب الاستئهال" قبل مباركة الأنتيذورون. فيرسم الكاهن علامة الصليب مع البانايا فوق الأسرار المقدسة ويقول "عظيم هو اسم الثالوث القدوس، يا والدة الإله أعينينا".

إلى هذا، هناك خدمة خاصة تسمّى "رفع البانايا" تُقام في بعض الأديار في غرفة المائدة. بعد ختم القداس، يقوم الراهب المسؤول عن الطعام بتقطيع البانايا إلى نصفين ووضعها على صينية. وإذ يخرج الإخوة في موكب من الكنيسة الرئيسية إلى غرفة المائدة، تكون البانايا محمولة أمام الموكب. هناك تُوضَع على طاولة تسمى Panagiarion.

في المقال التالي يشرح القديس مكسيموس اليوناني أصل هذه الخدمة ومعناها.

الابن الوحيد وكلمة الله، الذي صار إنسانًا من أجلنا (لكن بلا خطيئة)، خضع طواعية للصلب والموت والدفن حتى ترتفع طبيعتنا البشرية التي تسبب أبو الشر بطردها من الجنة قديماً. المسيح قام، وصعد إلى مجده الأول، ثم أرسل المعزي الروح القدس إلى تلاميذه ورسله. بعد صعود الإله / الإنسان / الكلمة إلى السماء، كان شهود العيان وخدام الرب في العلية، كما يخبرنا القديس لوقا، وبعد أن تلقّوا الروح القدس لم يكونوا مستعدين لإهمال التبشير بكلمة الله من أجل خدمة الموائد. فأقاموا شمامسة مكانهم. عندما كان دعاة الخلاص يجلسون إلى المائدة، كانوا يضعون عليها منديلًا عليه رغيف، هو حصّة المخلّص مماثلة لتلك التي أكلها عندما كان لا يزال بينهم بالجسد قبل آلامه.

عندما كان الرسل القديسون يقومون من على المائدة، كان الأكبر بينهم وأولهم يأخذ الرغيف في يديه، ويرفعه ويعلن " عظيمٌ هو اسمُ". فيجيب تلاميذ الكلمة الآخرون "الثالوث القدّوس". ثم يقول الشماس الذي كان يخدم "المجد لك باسم المسيح المخلص". فيجيب الرسل مجدداً "المجد لك يا إلهنا". ثم يُقال مرةً واحدة "اسم الثالوث القدوس المتساوي في الجوهر الذي بلا ابتداء" و "المجد لك يا إلهنا

المجد لك" مرتين، بسبب العنصرين، الألوهية والإنسانية، والقوتين والطبيعتين واتحادهما الكامل في الإله / الإنسان/ الكلمة.

مارس الرسل القديسون هذا الطقس عندما كانوا معًا وعندما توزعوا، بعد أن خرجوا لتعليم جميع الأمم. في رقاد مريم العذراء المقدسة الفائقة الطهارة، العذراء، التي بلا خطيئة ولا فساد، أم الكلمة، الأشرف والأرفع من جميع القوات السماوية، تجديد جنسنا، الإناء الفائق الثمن المتقبل لكل الألوهة، كان الرسل في أطراف العالم المعروف، حُمِلوا في السحب ونُقلوا إلى الجثسمانية للاشتراك في خدمة دفن الجسد الفائق النقاوة لوالدة الإله الكلمة. بمشيئة الله، التي ترى وترتب كل الأشياء، لم يكن الرسول القديس توما مع الآخرين عند دفن والدة الكلمة، تمامًا كما حين ظهر المخلص لتلاميذه والأبواب المغلقة بعد قيامته وعلّمهم عن السلام، ولم يكن توما موجودًا ولم يصدّق التلاميذ والرفاق الآخرين.

بسبب هذا الشك الحسن، علمنا، من خلال لمس أعضاء جسد المخلص النقية -الجنب واليدين- أن علينا أن نؤمن بأن مَن عانى من الآلام فيما كان بيننا هو بالفعل الإله الكامل. لذلك، في هذه الحالة أيضًا، بالإرادة غير المعلنة وغير الموصوفة، إرادة الذي يأمر كل الأشياء ويحكم كل الأشياء جيدًا، لم يكن توما حاضرًا في جنازة والدة الإله. جاء بعد ثلاثة أيام، محمولاً على سحابة، وهرع فورًا إلى القبر مع الرسل الآخرين، لإكرام جسد والدة الإله الذي استقبل الحياة. وهكذا أُعطي الجنس البشري كله الخلاص والإيمان الصحيح.

تماماً كما قام الإله المتجسد من بين الأموات، كذلك رُفِع جسد أمه المقدس إلى المدى السماوي. عند عودتهم من القبر، حكى الرسل لتوما، الكارز بالحق، عن كيفية نقله على السحابة. واستذكروا الكلمات التي كانت ترنّمها والدة الإله، ومعجزاتها وراحتها الأخيرة في القبر. وقد روى بدوره عن الاضطهادات والتجارب والمصاعب التي عاناها في رحلته. سمّى المدن التي آمن سكانها بكرازته، وأخبرهم أيضًا بما رآه عندما رُفِع في السحابة. أخبرهم كل هذا. ثم ذهبوا لتناول الطعام وبعده بدأوا برفع الحصة التي وُضعت إكراماً للمسيح المخلص.

عندما أخذ الشماس الذي كان يخدم هذا الخبز بين يديه، رفعه وقال "عظيم هو اسم" فأجاب الرسل "الثالوث القدّوس". وعندما قال: "المجد لك يا إلهنا المجد لك". يا لروعة أسرارك الفائقة الوصف أيها المسيح ملكنا، والتي بها تصنع المعجزات! فلتحقيق رغبة الرسول توما الشديدة برؤية والدة الله القديسة والعذراء، فقد سمحتَ له برؤيتك أنت وأمك القديسة وكل القوات السماوية وكل الذين رقدوا عبر العصور من الأرض إلى السماء. حدّق الرسل برِعدة بالسيدة العذراء وابنها الوحيد. وبدلاً من قول "المجد لك يا إلهنا المجد لك"، هتفوا "يا والدة الله الفائقة القداسة أعينينا!" وصاح الرسل الآخرون

"بشفاعتها، يا رب، ارحمنا وخلصنا!" ومنذ ذلك الحين ، صار يُحتَفَل برفع "البانايبا"، سيدتنا الفائقة القداسة، كتذكار لوالدة الإله نفسها.

وهكذا نحتفل برفع "البانايبا" عندما نقوم عن المائدة، لتقديس أرواحنا وأجسادنا. من يستطيع أن يمدح بطريقة مناسبة معجزاتها التي لا تعد ولا تحصى والتي لا تزال تصنعها حتى يومنا هذا؟ حتى لو استطعنا جمع بلاغة جميع الخطباء في فم واحد وصوت واحد، نبقى عاجزين عن إيجاد طريقة لإخبار أسرار عجائبها، التي تصنعها في البر والبحر: الأمراض تتلاشى، والشياطين تختفي، السجناء يتحررون من العبودية المريرة، وينعتق المسحوقون من البؤس الذي يلحق بهم. ومما رأيتُه وسمعتُه، فإن كلّ مَن يرفع إصبعًا أو حجرًا أو بعض النباتات في تذكارها وباسمها يُمنَح نفْس النجاة من الضيقات التي تُمنَح لمَن يرفع الخبز إكراماً لمريم والدة الإله العذراء الدائمة البتولية.

لقد أخذ ابنها، ربنا يسوع المسيح، الخبز بين يديه وقال: "خذوا كلوا هذا هو جسدي" و" افعلوا هذا لذكري". المسيح هو الرأس، ولهذا فإن الذين يشتركون في سرّه العظيم، إذا قبلوه عن استحقاق، يتقبّلون مجده ويصيرون آلهة بالنعمة.

لقد سُرّ الذين أسسوا الأسرار المقدسة بأن يؤكّدوا أن بهذا الخبز الذي يُرفَع تكريماً للاسم المقدس لوالدة الإله، نحن نُنقَذ من كلّ شر. وبفضل حمايتها، نحن نخلُص من العذاب الأبدي ونحسَب مستحقين للبركات الأبدية، بصلواتها وصلوات جميع القديسين على مدى الدهور. آمين.

† القديس مكسيموس اليوناني هو أحد أشهر الرهبان واللاهوتيين في القرن السادس عشر بسبب نشاطه التبشيري وإنجازاته الإصلاحية في روسيا في عصره. من مواليد أرتا (غرب اليونان وقد كانت في القرون الوسطى عاصمة إمارة إبيروس البيزنطية) حوالي عام ١٤٧٠ من أبوين محترمين وميسورَين، واسمه في العالم ميخائيل تريفوليس. ذهب في سن مبكرة للدراسة في إيطاليا، في مراكز عصر النهضة الرئيسية، حيث تتلمذ على أيدي علماء يونانيين مرموقين. أنهى دراسته وانضمّ إلى دير فاتوبيذي الأثوسي وسيم راهباً حوالي سنة ١٥٠٥. بعد أن قضى أول عشر سنوات في الدراسة والتعمق أرسله الدير في عدة إرساليات إلى مقدونيا والجزر. ذاع صيته في العالم الأرثوذكسي وخاصةً العالم السلافي الذي طالما كان على علاقة مميزة بالفاتوبيذي. أرسل القيصر باسيليوس إيفانوفيتش وفداً إلى الجبل المقدس يطلب راهباً مقتدراً لترجمة بعض الكتب الكنسية من اليونانية إلى السلافية، واستجابةً تقرر إرسال مكسيموس. انطلق من الجبل في ١٥١٦ ووصل إلى موسكو مروراً بالقسطنطينية في ١٥١٨. كانت موسكو ترزح حينها تحت الجهل، خاصة شعبها الذي كان يمزج بين الخرافات والسحر والتنجيم والانغماس في اللذات والإيمان المسيحي الأرثوذكسي. من جهة أخرى، كانت نصوص الكتاب المقدس والآباء قد أفسدها بشكل خطير ناسخون غير مسؤولين، مما جعل عمل الكنيسة أكثر صعوبة.

أول مهمة قام بها مكسيموس كانت ترجمة تفسير المزامير، لما له من فائدة للرهبان والعلمانيين على حد سواء. ولأن مكسيموس نفسه لم يكن يتّقن السلافية جيدًا في ذلك الحين، فقد زوده القيصر بمترجمين لمساعدته. عند انتهائه رأى المجمع الروسي أن الكتاب هو "نبع من التقوى". طلب مكسيموس الإذن للعودة إلى أثوس لكن القيصر رفض طلبه واستبقاه طالباً منه متابعة عمله، فبدأ مكسيموس العمل على الكتب الليتورجية مبتدئاً بالتريودي. بالإضافة إلى عمله الأدبي، أظهر مكسيموس حماسًا كبيرًا في العمل لتحسين الأخلاق وتنوير الشعب الروسي بكتاباته وعظاته، واستنباط الجوهر والمحتوى الأعمق للإيمان الأرثوذكسي ضد الخرافات المنتشرة.

بطبيعة الحال، فإن السمعة والمكانة التي حققها مكسيموس وقربه من القيصر ومعارضته للخرافات والأفكار الوثنية أثارت بعض الأوساط الكنسية فتحركوا حسداً وانتظروا الفرصة للانتقام. أتت الفرصة مع انتخاب دانيال رئيس دير فولوكالمسك ميتروبوليتاً وقد كان لمكسيموس اعتراض على قانونية الانتخاب. من جهة أخرى، انقلب القيصر على مكسيموس لأنه رفض أن يبارك زواجه الثاني. انعقد مجمع روسي وحكم بسجن مكسيموس في دير أوتروت حيث بقي إلى عام ١٥٥١. بمسعى من رئيس دير لافرا القديس سرجيوس وبعض النبلاء أفرج القيصر عنه ونُقل القديس، الذي أضعفته مصاعبه وتجربة السجن، إلى دير القديس سرجيوس، حيث عاش حياة القداسة بقية أيامه، واكتسب أخيرًا في شيخوخته الاحترام العميق وتقدير القيصر إيفان فاسيليفيتش. رقد في ٢١ كانون الثاني ١٥٥٦، عن عمر ست وثمانين سنة، قضى منها ثمانية وثلاثين في المصاعب والسجن والحرمان، خادماً الكنيسة الروسية والشعب الروسي. فهو، حتى في عزلة السجن، استغل الفرصة لتأليف مجموعة من الكتابات والرسائل لتنوير هذا الشعب. تعيّد له الكنيسة في الحادي والعشرين من كانون الثاني.